خلال دقيقة واحدة

بقلم.. نورا عبد الله السلمان / السعودية

أريد أن أسألك سؤالًا..

سؤالًا بسيطًا!

ماذا قد تفعل خلال الدقيقة الواحِدة؟

هل ستأكل؟ أم ستلعب؟ هل ستتشعر بالنعاس ثم تذهب للنوم؟ أم قد تجلس مع عائلتك خلالها؟

هل ربما ستذهب لزيارة لصديق؟

أم قد تبدأ تفكر بشيءٍ يستحق؟

حينما تكون معتادًا على الأجواء العائلية، ذلك كفيل بالتغطيّة على حالتك المادية مهما كانت، لكن حينما تفتقد من يجعلك تبتسم بسبب هذا

حينها تظهر لك مدى وحشية الحياة، وكمثال خُذ بحياتي أنا

فأنا أقف فوق سطح منزل عائلتي..

أو لِنقُل فوق هدام منزل عائلتي، بمكان كان يعج بالضجيج في وقتٍ ما لكن الآن لا تسمع به سوى حفيف الرياح حين تتخلله.

لا وجود لعلامات الحياة، أو أي شيء يريح قلبي المُهشم..

فأنا عدت بعد سنه ونصف لموطني لأجدهم تلاشوا كما لم يكونوا من قبل!

لماذا؟ ماذا حدث! وبحق الله لما كل هذا!!

أردتُ أجوبه تُلملم شتات قلبي لكني فقط لم أرى سوى ذكرى لضحكات الأطفال هنا وطيفي معهم..

لما ما زلت أتذكر؟ لقد رحلت من هنا! اذًا لما قلبي الأحمق لم ينسى؟

الأمر مؤلم لنُخاع..

أهذه نهاية تلهُفي الطويل؟

ضحكت بسخرية فيما أسير بخطىً ثقيلة بين المباني المحطمة، أنا لا أجد وصفًا يليق بما أراه! مروِّع؟ مهوِّل؟ مُخيف؟!

المنظر فقط يفطِر القلب لنصفين، كأنه لم يكن هنالك بشر من قبل! أنحن بهذا الضعف؟ نذهب بكلِّ هدوء ولا يبقى خلفنا سوى رُكام وذكرى صغيره؟

أم نحن بتلكِ القسوة؟ في حين يأتي موعد وداعِ أحدنا فهو يأتي بتلك البغتة ولا يرحم القلوب التي ستفقدُه!

كيف للمرء العيش بعد الفقد؟ بعد الرحيل! بعد الوداع الأبدي!

والأسوأ أنه لا يستطيع التعبير سوى بالبكاء، ولذلك لن يفهمه أحد!

تنهدتُ بعمق لأشتت أفكاري بعدها وأسير بخطى أسرع دون التأمل بالتفاصيل، فلا بد من ناجين هنا!

ما زلت غير مصدق بأن قريتي النائية مسحت من الوجود!

بعد ساعة ونصف تقريبًا من المسير رأيت من بعيد عدة خيام تقطن أسفل الجبل القريب، تبدو كملاجئ لذلك ابتسمت باتساع قبل أن أخطو إليها

كنت سعيدًا جدًا لرؤيتي أمل للحياة هنا، سعيدًا أن هنالك من لم يرحل عن هذا المكان! فهذا دليل على أن قريتي الصغيرة وموطني لم تتلاشى كليًا بعد!

أسرعت بخطواتي أكثر لأركض بعدها وأبتسم باتساع لمنظرهم لكن سرعان ما اختفت كوميض أمل..

المنظر كان كاسرًا أكثر من المباني المهدمة التي لم يكن لها صوت! فهنا جميع الأعمار لكن لا أثر للحياة الجميلة، لا أثر للأرواح فقط أجساد تتحرك على حسب استطاعتها..

كانوا بائسين لم يملِكوا سببًا للعيش، يائسين جدًا لإكمال الحياة التي ضربتهم من كل الجهات! آلمني قلبي لهيئتهم التعيسة..

هل حقًا اعتقدت أنهم أملي قبل قليل؟

خطوت خطوة نحوهم بتردد لينتبه لي طفلًا ما، وقف بعدها بسرعة مهرولًا نحوي:

"سيدي؟ سيدي؟"

نادى وهو يشدُّ يدي لأنتبه له لكني ما زلت مصدومًا، أهذا المكان الذي ظننت أن بهِ حياة؟ هل كنت أمازح نفسي؟

"أتملك ما تعطيني إيّاه؟ " سأل ليتجمع الأطفال حولي برجاء ولهفة لأغمض عيناي بألم وحسرة، أنا أتيت مناشدًا بهم لكن ما يحدث الآن هو العكس من ذلك تمامًا.

"أ- أنا آسِف تأتأت بعجز لتنهمر دموعي ويبتعد عني الأطفال شيئًا فشيئًا"

"سيدي هل تبكي لأنك جائع؟ أنا آسف لكني فقط أملك هذا" قال الطفل الذي رآني أولًا وهو يمدُّ لي كِسرة خبز صغيرة كان متشبثًا بها بيديه النحيلة، انخفضت لمستواه لأعناقه بحرارة "أنت بطل" همست بأذنه ليبتسم لي بوسع ويومئ:

"والداي كانا يقولان لي ذلك! " قال بابتسامه لأشعر بقلبي يُعتصر من الألم، هل قال كانا؟ هل تحدث بصيغة الماضي للتّو؟

فهو إن لم أخطئ لم يتخطى السادسة بعد..

"سأقولها لك دائمًا إن أردت " أخبرته بلطف ليومئ لي بسعادة وهو يسحبني خلفه لأذهب معه بابتسامة صغيرة.

سرت خلفه ليسير خلفي الأطفال فيما بات البعض يخرج من تلك الخيام ليلقي نظره عليّ، توترت لكني أبقيتُ ابتسامتي على محياي لكي لا أُخيف الأطفال خلفي.

"عمي! هذا السيد قال أني بطل كما كان يفعل أبي! " تحدث الطفل للرجل الغاضب هناك بسعادة طاغية، أمسك الرجل به ليسحبه خلفه وهو يوجّه لي نظرات حادة.

"أمم أ - أهلًا؟ "تمتمت بشكلٍ أخرق محاولًا التعرف عليه بوّد لكن لا شيء تغيّر من ملامحه، إلهي ساعدني!

"لما أنت هنا؟ "سأل بجمود لأتوتر أكثر" أ-أنا فقط خِلت أن أجد عائلتي هنا "تمتمت بيأس وتوتر ليحدق بي بتفحص.

"وهل أنت أخرق لتبقى للآن على أمل؟ أنظر! أنت هنا منذ عدة دقائق والجميع يحدق بك ولم يتعرف عليك! اذًا لم للآن ما زلت تظن أنهم هنا؟"

قال ليكسر شيئًا ما بداخلي جعل أطرافي ترتعش " ه-هل هذا هو عددكم أ-أجمع؟؟ "سألت ببراءة طفل فيما أنظر لجميع الموجودين اللذين يحدقون بي بغرابة لأشعر بغصّة حلقي تصارع للخروج.

أعدت نظري للرجل مرة أخرى برجاء لكن نظرته كانت بلا حياة، كان يخبرني بنظراته أنهم جميعًا مرّوا بذلك، جميعهم سُلب منهم الأمل، جميعهم مرّوا بذلك الحطام ليصلوا هنا بكلّ يأس..

كانوا مثلي بلا أمل ولا حياة، وما يؤلمني الآن ليست ذاتي التي عاشت نصف حياتها مع من تحب، أنا أتألم لمن شكلوا حلّقة حولي الآن ويغنون بسعادة وكأنهم لم يصبحوا هياكل من شدة الجوع!

لم يعيشوا سوى بضع سنين مع عائلاتهم التي رحلت، فقدوها في أشد سنين العمر حاجةً للعائلة، ومع هذا تجد أنهم حين يبتسمون تظهر ابتسامتهم كما لو أنهم لم يُعانوا من شيءٍ قط..

"أستطيع النوم بجانبك؟ أرجوك وافق "تحدث أحدهم لي لأنظر له مطولًا لكن قفز الأطفال الآخرين الذين يريدون مشاركته طلبه جعل دموعي تنهمر مجددًا

ما بالي أصبحتُ طفلًا أمامهم!

"سيدي هل تشعر بالجوع مجددًا؟" سألوني بعبوس لأومئ لهم سلبًا قبل أن أنحني لمستواهم " أنا حزين لأني سأكون الشرير الذي ستقضون عليه أيها الأبطال! "أخبرتهم ليقفزوا بحماسٍ وسعادة لكنهم بعدها بدأوا يترامون علي واحدًا تلوَّ الآخر..

بقيت معهم أرسم الابتسامة على ثغرهم بقدر استطاعتي حتى حلَّ المساء ليستعد الجميع للنوم لكن محاولاتهم فاشلة، فمن سيشعر براحة بهذه الخيام الباردة؟

"ستنام هناك" قال لي الرجل الغاضب سابقًا لأبتسم له بتوتر وأنهض لحيثُ أشار لي " أعتذر عن سوء تصرفي، لكن هذا الصواب كيّ لا تتأمل كثيرًا وأيضًا يبدو أن الأطفال أحبوك كثيرًا لذا أمل أن تقضي بعض الوقت معهم"

قال بنبرةٍ شبه لطيفه لأومئ له بسرعة لكنه فقط اقترب وطبطب على كتفي الأيمن قبل أن يلتف ليرحل "أتمنى لو أملك ما أعطيهم إياه.. "أت"

تمتمت لنفسي قبل أن أنام بأسى: هل تعلمون شيئًا؟

أحمق لأني لا أستطيع إخفاء خوفي، خوفي حينما يخبروني أنهم جائعون، ماذا أفعل؟ ماذا أقدِّم لهم؟ صدقوني لو استطعت تقديم روحي كطعام لفعلت!

أمضيت شهرًا هنا الآن، قضيته كل يوم بصحبتهم لكنهم الآن أنحف من ذي قبل، كما أنّي أيضًا فقدتُ الطفل الذي قدَّم كَسرة الخبز لي في أول يوم، قبل ثلاثةٍ أيام من الآن، كان يبتسم وهو يلفظ أنفاسِه الأخيرة.. غرَّقت عيناي بالدموع لتذكري لابتسامته الدافئة، فلا شيء أسوء من ابتسامة الرحيل..

وضعت ذراعيَّ فوق عينيَّ كطفل لكبح دموعي وشهقاتي، أزداد نحيبي أكثر لتذكري كلامه الأخير:

"عمي.. لقد هزمتني.. أ- أصبحتُ بطلًا خاسِر -..."

لِمَ تُسلب الأروح بهذه البساطة رغم عظمتها؟!

الجميع يفرح حين تولد.. إذًا لِمَ هذه القسوة حين ترحل!؟

دائمًا ما أسأل عائلتي لِمَ على الطيّبون أن يرحلوا مبكرًا؟

لم أكن أفهم جواب والدي حينها لصغر سنّي لكني الآن أدركه جيدًا وأدرك مدى عمقه..

"لأن مكانهم ليس معنا، ليس على الأرض بنيّ"

كنت جاهلًا لأفهم أن هنالك حياة أخرى بالسماء تُدعى الجنة، تُدعى النعيم ولا تخطر على قلب بشر..

لم أكن أفهم قط أنه فقط بالحروب تُفقد الكثير من الأرواح.. أرواح لم تذق نعيم الحياة بعد ولم تكتف الحياة منهم لتسلب منهم أعزاءهم بأبشع طريقة وأمام أعينهم!

هل كنت تمتلك فكرةً عن هذا قبل اليوم؟ هل كنت ولو قليلًا تشعر بمرارة ألمهم؟

هل كنت تعرف أنه فقط بالحروب.. فقط بساحِة القتال!

وخِلال دقيقه واحدة!

قد تفقِد حياتك وقد تُنقِذ.